

## تأثير الثقافة الإسلامية على العمارة المدنية وتخطيطها داخل المدن القديمة "تلمسان أمودجا"

بوزياني فاطمة الزهراء؛ جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان

### مقدمة:

لقد أتى العرب بحضارة عظيمة شملت كل ميادين الحياة، خاصة الميدان المعماري الذي لا يزال قائما بذاته إلى اليوم في الكثير من الدول العربية كما أنهم أتوا بأساليب معمارية جديدة في تنظيم المدن، وفي بناء القصور والمنازل ، والتي تختلف عن الأساليب التي اتبعها الرومان والبيزنطيون والفراعنة وغيرهم، فأنشؤوا مدنا جديدة لها طابعها الإسلامي المميز، وشيدوا مبان وقصورا متمشية مع نمط حياتهم وأذواقهم<sup>(1)</sup>.

و إن الدارس لطريقة تشييد المدن الإسلامية العتيقة عامة و تلمسان خاصة مقام وفق مجموعة من المعايير الهندسية و التخطيطية التي تسعى للقضاء على مختلف المشاكل الاجتماعية التي يمكن حدوثها داخل المجتمع المسلم. فالمعروف عن العمارة الإسلامية المدنية بمدينة تلمسان أنها تركز على الداخل أكثر مما تركز على الخارج، فالأشكال الهندسية كالمثمن و المضلع ليس الغرض منها الشكل و إنما الهدف الذي ترمي إليه، ما جعل العقيدة ترتبط بالمضمون الوظيفي و العقائدي الذي انعكس على شكل العمارة التلمسانية الإسلامية التي ترجع لعدة قرون. فالعمارة المدنية بمختلف أشكالها (الدور و القصور) بتلمسان نلتبس فيها تأثر الفنان المعماري المسلم الذي سعى إلى عدم الإسراف في الزخارف النباتية و الهندسية في التزيين كونها تتعارض مع القيم الإسلامية التي تدعو إلى الوسطية في كل جانب من جوانب حياة الإنسان و المجتمع المسلم. فالإسلام يحرص على الإنفاق فيما ينفع الناس دون تبذير أو تقتير. و لعل الباحث في الحضارة الإسلامية سيدرك أن أولى التشريعات قد ولدت مع نشأة دولة الإسلام في المدينة المنورة . فهناك أحاديث نبوية و أفعال للجيل الأول من الصحابة تدل على الاهتمام بفن العمارة (المعايير الوظيفية و الجمالية) و بتلمسان سنسلط الضوء على أهم الأحياء ( التي ترجع للفترة الإسلامية) المعروفة بها كحي اليهود و درب السنسلة و حي الرائد جابر النهج الأول و الثاني و حي الشهداء وحي باريس علما أن دراستنا هذه تركز على الجانب الميداني بغية إسقاط تلك المعايير الهندسية و التخطيطية المعروفة بالدول الإسلامية على ارض الواقع كحجم النوافذ و الأبواب و نوع الزخارف المختارة بالعمارة والغرض من بناء الفناء الداخلي و مركزه (وسط الدار) والغرض من الأقواس من بناء الأقواس، من هنا تظهر لنا عملية تأثير الثقافة الإسلامية على الفنان المسلم ، إذ يلاحظ حاليا غياب ربط التراث العمراني أو فن العمارة بالفكر الإسلامي ومقوماته. كون الدراسات الحالية تعتمد على الفكر الغربي الذي يتميز بنزعة الاستعلائية التي نشأت في أحضان

الاحتلال الغربي للبلدان العربية و الإسلامية غالبية الأحيان دون الالتفات إلى التشريع الإسلامي و العقائد و الأخلاق، و هي ترى المدينة الإسلامية تجسيدا للفوضى و النزعة القبلية و غياب السلطة عن تنظيم المجتمع و يستدلون بذلك المباني المتراكبة و المتلاصقة و الأحياء السكنية و الشوارع المتعرجة ما أعطى مفهوما غير المفهوم الذي جاءت به بعض الدراسات التي عاجلت هذه الإشكاليات.

كما يمثل التراث العمراني و المعماري و الفني الذي تزخر به مدننا القديمة صورة وفيّة مستقرّة من المخزون الثقافي الإسلامي.

ومن هنا المنطلق جاءت إشكاليتنا بالشكل الآتي:

كيف تأثرت العمارة المدنية بالثقافة الإسلامية و تخطيطها داخل المدن القديمة بتلمسان، وهل هناك بعد رمزي و ديني في العمارة و الزخرفة الإسلامية ويمكن تجسيده من خلال العمارة المدنية؟

### الرمزية والبعد الديني في العمارة و الزخرفة الإسلامية:

إن البحث عن الرمزية في الزخرفة الإسلامية، بمثابة دعوة إلى التفكير فيما وراء هذه الزخرفة، والتفكير فريضة سلامية، دعانا إليها المولى عزّ وجل: "الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ". ولقوله صلى الله عليه وسلم: " تفكروا في الخلق ولا تُفكّروا في الخالق، فإنه لا تحيط به فكرة".

وإذا كان لا يخفى علينا أنّ الفن الإسلامي لا يعدُّ فناً دينياً، ولا يمكن لأحد الادعاء بأنه قد خدم العقيدة في شيء، فما من شك أنّ هذا الفن يعكس موقف الفنان المسلم من الكون والحياة، وفقاً لطبيعة النظرة الإسلامية إليهما. ومن ثم فإن عمل الفنّان المسلم لا ينفصل بأية حال عن فكرة ونظرته إلى العالم أو عن سائر أنشطته اليومية، لذا نجد يدرك ما بين الروح والمادة من امتزاج، وأن م في حياته من منافع وجمال يقتضي منه الجمع بين قضاء حاجاته الضرورية وتلبية حاجاته الروحية والوجدانية دون ان يطغى جانب منهما على الآخر(2). لقوله سبحانه وتعالى: " والأنعام خلقها لكم فيها دفاء ومنافع ومنها تأكلون، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون". إنّ الفن لا يقوم بالمادة وحدها، ولكنه يتضمن بالضرورة بعداً آخر، ألا

وهو البعد الروحي. يتميز الفن الإسلامي باتساع الأفق ويعطي فرصة للاجتهاد فيها و لا يتعارض مع الشريعة الإسلامية للقول الشائع: "رأبي صواب يحتمل الخطأ و رأيي غيري خطأ يحتمل الصواب".

إن بحثنا عن الرمزية الدينية في الزخرفة الإسلامية، هو بحث في الجمال الظاهر المادي- المدرك بالحواس ،لنصل إلى الجمال الباطن- المعنوي ، المدرك بالقلب أو الوجدان ، وعلى الرغم من أن الفن الإسلامي يعد فنا دنيويا، إذ لم تكن العقيدة الإسلامية في حاجة إلى الفن للوصول إلى عقول المساميين فلا يمكن كما سبق القول أن ننكر دور العقيدة الإسلامية وتأثيرها في هذا الفن وقد كان لبعض الألوان في الفكر والفن الإسلامي معاني واضحة وصریحة ولبعضها الآخر معان باطنية ودلالات رامية تحمل مضمونا سياسيا أو اجتماعيا أو دينيا . اللون الأبيض: ارتبط هذا اللون في الفكر الإسلامي بمعان سامية، ومن ثم فقد استخدم رمزا للصفاء والنقاء ، لذا نجده لون رداء الإحرام، كما أنه ورد في القرآن الكريم باعتبار انه هو لون وجوه المؤمنين في الجنة ،أو هو رمز لأصحاب الجنة ،

**قال تعالى:**

{ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَدُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (46) وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } .و نجد المعاني السامية للون البيض في العديد من الأحاديث النبوية الشريفة، لقوله صلى الله عليه وسلم: " إن الله خلق الجنة بيضاء، وإن أحب اللون إلى الله البياض، فليلبسه أحياءكم وكفنوا فيه موتاكم ". ومن الجدير بالذكر أن إحدى رايات الرسول بياض اللون كما أن رايته السوداء المعروفة بالعقاب كان مرسوما عليها هلال ابيض اللون.

اللون الأسود: يعد اللون الأسود أيضا من الألوان التي قد يكون لها معاني باطنية و دلالات رامية، وقد كان هذا اللون من الألوان التي أقبل الرسول صلى الله عليه وسلم على استعمالها، فهو اللون الذي اتخذ منه الرسول لون عمامته. ويشير بعض العلماء إلى أن اللون الأسود<sup>(3)</sup> كان يرمز إلى الحق والعدالة ، والسيادة والمجد و الشرف ويرمز كذلك لقتال السادة طلبا للثأر أو استعادة الحق من أهل البغي و التعدي و الظلم. وراية العباسيين كانت سوداء كما اتخذوا من السواد بصفة عامة شعارا لهم ، لاقتدائهم برسول الله صلى الله عليه وسلم حين اتخذ من السواد لونا لرايته وذلك عند قتاله للمشركين .

اللون الأخضر: اللون الأخضر من الألوان المحببة للمسلمين لان الله تعالى اختاره ليكون لباس أهل الجنة لقوله سبحانه وتعالى: {عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضَرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ}.

ومن ناحية أخرى كان هذا اللون لون الجنة التي وهبها الله تعالى للإنسان على الأرض. بالإضافة إلى ذلك فقد ارتدى الرسول عليه الصلاة والسلام ثياباً خضر اللون، وورد أنه حين شقت الملائكة صدره وضعوا فيه لؤلؤة بيضاء في منديل أخضر من حرير. وإلى جانب ذلك فقد ارتبط هذا اللون بآل البيت حيث اتخذت الأسرة النبوية أو العلوية منه شعاراً لهم. وعموماً فإن إقبال المسلمين على استعمال هذه الأعمال في فنونهم يرتبط بالمعاني الباطنة، المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة<sup>(4)</sup>.

**خصائص المدن الإسلامية وقواعد إنشائها:** تشترك المدن الإسلامية في كثير من الصفات، والتي هي انعكاس لطبيعة الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعسكرية ومن ذلك نذكر:

- اعتاد المسلمون أن يبدأوا ببناء المسجد وسط المدينة بعد الاستقرار في المنطق المفتوحة، كما يقع المسجد قرب السوق، إضافة إلى بيت الخليفة أو الوالي.

- كان السوق المركز التجاري الرئيسي في المدينة، حيث يلتقي فيه تجار الجملة أو التجزئة ودوي الحرف والزبائن، وبه تعقد العلاقات التجارية، ومن أبرز صفات الأسواق العربية أنها تمتاز بالتكتل، إذ أن أصحاب كل حرفة، أو باعة نوع معين من البضاعة يميلون إلى التجمع في منطقة واحدة.

- المناطق السكنية تحيط بالسوق عادة، وترتبط به بواسطة الشوارع الرئيسية والتي تكون أوسع من الأزقة المتلوية داخل المدينة.

- التواء الشوارع وضيقها، ويرجع لعدة أسباب:

كون بعض المدن غير مخططة بصورة علمية، ونمت بطريقة غير نظامية. الروابط القومية بين سكان الحي الواحد لانتمائهم إلى عشيرة أو قبيلة واحدة والرغبة في السكن معاً. ليست كل المدن العربية الإسلامية ينقصها التخطيط، ولكي يعتقد أنّ المدن التي حمت بصورة تلقائية وعشوائية كانت أكثر من تلك التي بنيت على أساس مخطط، ويغلب التخطيط الدائري على المدن الإسلامية، مثل الكوفة والبصرة وبغداد، مدينة صنعاء القديمة<sup>(5)</sup>.

ظهر البيت الإسلامي في كثير من العالم الإسلامي، وقد لوحظ في تصميم معظمها موافقتها لجو البلاد والعادات الشرقية فكانت حرمة الدار مكفولة، ومن ظاهر الدار لا يستطيع المرء رؤية من بداخلها<sup>(6)</sup>.

والمنازل الإسلامية تناولتها دراسات كثيرة من أجل تحليل وتفسير طريقة إنشائها ، فبداية وضع عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين ، دستوراً لإنشاء المدن أذاعه على فاتحي الأنصار ومنشئها في صدر الإسلام، فمحور المدينة المسجد( المركز ) تتفرع الشوارع حوله و الطرق جعلت أربعين ذراعاً وما يليها ثلاثين، و ما بين ذلك عشرين، أما الأزقة فبسبعة أدرع، و القطائع ستين.

و من هذا الدستور يعزى ضيق مساحة المنازل و وجودها متراسة بجانب بعضها البعض و ضيق الشوارع التي تحوي المنازل على الجانبين.

المظاهر الخارجية للمنازل بخلاف ما عليه من الداخل من الأبهة ويشير كتاب مكارم الأخلاق فيما وصفه عن السنة والشرع الشريف، أنه يفضل المسكن الواسع عن المسكن الضيق والحد الذي يجب أن يرفع فيه البناء بألا يزيد عن ثمانية أزرع وإذا زاد عن ذلك فتكتب آية الكرسي فيما علا عن ذلك ،وحبيت الإشارة إلى وجوب الاقتصاد في عمارة المباني (7)

**خصوصيات المسكن التاريخي :** يتميز المسكن التاريخي بصفة عامة بمجموعة من المميزات نذكر منها أنه: يتمتع بنوعين من المساكن خلال عهد الوندسريسي والوقت الحالي. النوع الأول، بسيط تمارس فيه نشاطات الحياة وهو خاص بشخص واحد مع عائلته (8) . من جملة الدور و القصور والفيلات. النوع الثاني: مكون من طوابق (9) تسكنه أكثر من عائلة، وهو ما يسمى حالياً بالعمارة أو المباني السكنية.

تصميم المسكن بنوعيه يوافق العادات والشرعية الإسلامية ،لأن حرمة الدار كانت مكفولة، ولا يستطيع المرء رؤية ما بداخلها (10).

يوجد في شكل وحدة متراسة فيما بينها، لعدم وجود المساحة الفارغة بين المسكنين.

اغلب المساكن التاريخية تحتل أهم المناطق وسط المدينة القديمة والحديثة.

اختلاف على مستوى التخطيط الهندسي مع مراعاة الركائز الأساسية في البناء كوسط الدار (صحن).

شساعة المساحة داخل البيت الواحد، لأنه كان يضم أكثر من عائلة (الجدين، الإخوة، الأحفاد)، ما أعطانا من الناحية الاجتماعية وجود نوع من التماسك العائلي الكبير مقارنة مع الفترة الحالية، بسبب الاستقلالية، التي خلفت مشكلة التجديد العمراني والحاجة للسكنات الكثيرة.

البيوت التي ترجع للفترة الإسلامية تميزت بضيق أزقتها، أما البنايات أو المساكن التي ترجع للفترة الاستعمارية فكانت بها مساحة واسعة خلال تصميم أزقتها.

**الأسواق العمومية بتلمسان :** السوق ضمن النسيج العمراني بالمغرب الإسلامي ليس بالمساحة الشاسعة ، بل يمكن له أن يتواجد في زنقة عادية تفتح لها الدكاكين على الجانبين، فالشارع النافذ لا يقل عرضه عن ثمانية أدرع، كي يسمح بمرور دابتين محملتين بدون إحداث ضرر بالبضائع المعروضة بالدكاكين ، و بدون إزعاج المارة ، و بتلمسان نجد أسواقا تعرض نفس السلعة أو ما يجانسها كسوق الجزارين و سوق الخضار ين شرق المدرسة التاشفينية، و سوق الغزل شمال المسجد الجامع الذي تحول إلى سوق للخبز .

هذا بالنسبة للأسواق اليومية، أما الأسواق الأسبوعية فهي تقام ببعض الساحات العمومية الموجودة داخل مدينة تلمسان، أو بالقرب من الأبواب الرئيسية للمدينة كسوق الدواب الذي يوجد خارج باب كشوط (11).

**التقسيم المعماري والوظيفي لمدينة تلمسان:** تقوم المدينة عموما بثلاث وظائف، هي الوظيفة السياسية (الإدارية) والوظيفة الاقتصادية، والوظيفة الاجتماعية. وانطلاقا من هذه المعطيات تعتبر تلمسان نموذجا في فن وتخطيط المدن، بسبب تصميمها الذي يبرز ثلاثة أقسام رئيسية. فالوظيفة الإدارية تخص كل القرارات الهامة بالنسبة للمدينة ، أما الوظيفة الاقتصادية فخاصة بالتجارة و النتاج الصناعي والحرفي)، والوظيفة الاجتماعية تتركز على الجانب السكني. وهنا علينا الإشارة أو لفت الانتباه إلى ظاهرة تسمية النسيج العمراني القديم بـ: "الأحياء الشعبية" وكأن المدن الإسلامية كانت تقسم إلى الأحياء العامة (الشعبية) والأحياء الخاصة (الأعيان). وإذا كان هذا من سمات المدن الغربية وهنا نقول أن لا وجود لطبقية الأحياء في مدن المغرب الإسلامي. ودليل ذلك أن عائلة "المقري" التي جنت ثروة طائلة من جراء الأسفار كانت تسكن بحي باب علي، وعائلة "سَرْمَاشِيْق" المهندس والمرمم لضريح سيدي أبي مدين شعيب استقرت عائلته بالمكان نفسه، وكذا عائلة "العقباني"، كما يروي أن يحيى ابن خلدون كان يسكن غير بعيد عن ضريح سيدي الشعار، وكل هذه الأماكن توجد في ما أصبح يسمى بالأحياء الشعبية(12).

## دراسة ميدانية للمعايير الهندسية و التخطيطية في تصميم مدينة تلمسان العتيقة:

إن المطلع على الدراسات التي تجري على التراث العمراني والمعماري الإسلامي يكاد يصنفها في اتجاهين مختلفين : أحدهما يتعلق بالدراسات الأكاديمية الإستشرافية و الآخر يجمع التجربة الإحيائية التطبيقية في البلاد الإسلامية. كلا الاتجاهين يلاحظ فيهما غياب التراث العمراني بالفكر الإسلامي ومقوماته ففي الاتجاه الأول تسند الدراسات في الغالب على الفكر الغربي- وسائل ومقومات- دون الالتفات إلى التشريع الإسلامي والعقائد و الأخلاق . بينما تغلب الطابع الشكلي على الاتجاه الثاني حيث يكتفي رواده وأتباعه بتكرار الأشكال القديمة أو تحديثها دون الاهتمام بالقيم التي جاءت لتحافظ عليها وتجسدها.

لقد اهتم الفقهاء المسلمون بوضع ضوابط ومعايير للحكم، بوجود ضرر ناتج من الأنشطة الصناعية والتجارية والحرفية. و من هذه الأضرار الاهتزاز الموهن للحوائط والروائح الكريهة مثلما يصدر من الدباغة والدخان الكثيف والقمامة والحرائق وغيرها. ففيما يخص الاهتزاز فقد ذكر ابن الرومي في تونس أن تخاصم جاران بسبب الاهتزاز الناتج عن دق النوى عند أحدهما مما خيف أن يؤدي إلى تصدع البناء. المهم أن العبرة في ذلك كله أنه إذا اهتزت حبات القصر عند التشغيل يثبت الضرر، وإلا لم يكن هناك حجة لتوفيق تلك الصناعة.

أما فيما يخص ضرر الرطوبة والإزعاج الصوتي فيرى ابن عبد الرفيق في كتابه معين القضاء والحكام، أن ابن الرامي أمر صاحب الإسطبل ببناء حائط آخر لمنع نفاذ الرطوبة والإزعاج الصوتي.

أما عن الدخان فقد قسم إلى نوعين: منه ما يمنع ومنه ما لا يمنع فالذي يمنع منه في الإحياء السكنية دخان الحمامات والأفران والحداين و الفخارين والطواحين، بينما ل يمنع ضرر دخان المطبخ والتنور للخبز الذي يحضر للبيت أما الضرر فيأتي لسببين:

الدخان.

الحريق<sup>(13)</sup>.

و بتلمسان لتفادي الاختلاط بين الجنسين على مستوى المدينة ، لاسيما اختلاط المسلمين العابرات بحي اليهود، بأهل الذمة، وتماشيا مع منظور العلاقات الاجتماعية، عمد المصمم إلى إحداث أماكن مرور خاصة بالنساء داخل النسيج العمراني التلمساني و زودت هذه الأماكن بإشارات ورموز من شأنها تفادي ضرر الاختلاط (لتجنب أماكن الازدحام)، ومنعها أيضا من الجلوس داخل حوانيت الصنائع ، واشترط داخل سوق الغزل ألا يدخله مشتر أخلاقه غير محمودة، ودليل ذلك ما قاله صاحب "تحفة الناظر": "ومن ذلك جلوسهن إلى الصنائع يستصغن عندهم شيئا من المصوغات، وكذلك الإطالة بالوقوف على حوانيت البياعين وخصوصا ذي العطر وطيب الروائح، لأن ذلك كله داعية إلى الفتنة" ولقوله صلى الله عليه وسلم "باعدوا بين أنفاس الرجال والنساء". وأثناء الاختيار لهذا السوق كانت تعين للنساء موضع مستتر يحضرن للجلوس فيه لقضاء ما يحتاجن إليه، لكي لا يخالطوهن من يجتاز أو يتصرف من الرجال.

وكان هناك حكم بمنع فتح باب الحانوت قبالة باب دار ، لقوله سبحانه وتعالى: "ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين" (سورة الحجرات الآية 88).

أما الحد الأدنى لعلو السقيفة بالطريق فعليه أن يضمن المرور العادي لراكب دابة، وما يلاحظ كذلك إخراج الصنائع المزعجة إلا ما وراء أسوار مدينة تلمسان، و إلى جانب هذا يلاحظ انعدام المقاهي بالساحات العمومية أو على مستوى الطرقات مع المقارنة بتلمسان الحالية وذلك لأنها (المقاهي) كانت موجودة داخل عمارات مخصصة للخدمات كالفنادق ، والدكاكين الموجودة بمدخل الفنادق ، والحمامات ومحلات الحجامين والحلاقين، وذلك تجنباً للاختلاط بين الجنسين أو النظر إلى المارة (النساء خاصة) <sup>(14)</sup>.

هناك ظاهرة استوقفتنا ميدانيا، كون بعض الميازيب تصب مباشرة على الطريق، ما يشكل ضررا على المارين، و يؤذي لنزاعات بين أصحاب البيت و عابري الممر. وفي هذا الصدد وصف ابن خلدون قنوات المياه قائلا: "و تسريب المياه في القنوات مجلوبة و مرفوعة بحيث لا تضر بما مرت عليه من البيوت و الحيطان و غير ذلك" <sup>(15)</sup>.

من خلال العمل الميداني الذي قمنا به ببيوت تلمسان و أخص بالذكر بيوتها و أزقتها مثل الطحطاحة التي وجدنا فيها العديد من البيوت التي ترجع إلى الفترة الإسلامية حيث يصل بعضها لأكثر من 300 سنة، و عرض هذه الأزقة لم يكن متساويا، فمن خلال قياس عرض أحد الأزقة توصلنا إلى أن شكله كان منكسرا فالنقطة الأولى تساوي 1.60م، و الثانية 1.30م و الثالثة 2.10م و النقطة الأخيرة كانت حوالي 60سم.

مظهر البيت من الخارج بسيط قليل الزخارف و النوافذ ومن الداخل نجده مؤلفا من فناء محاط بغرف مطلة عليه من الأعلى و الأسفل، مزود بمجموعة من الأقواس و الأعمدة و الزخارف النباتية و الهندسية، وافتقاره للزخارف الآدمية، فبأحد البيوت الواقعة بحي باريس و الحامل للرقم 12، يرجع لما يفوق 200 سنة، و دليل ذلك أن الأوراق الثبوتية لمالك المنزل الأولى مكتوبة بلغة الدولة العثمانية(السريانية).

و بالنسبة للمدخل فقد جاء بسيطا و مزودا بأشكال هندسية نجمية تعلو الباب، و ألوانها تمحورت بين الأزرق الفاتح و القاتم إلى جانب اللون البرتقالي، فرميا للون الأزرق إشارة إلى السماء و لكن ما الغرض من اللون البرتقالي الذي لم نجد له بعدا رمزيا يمكن اعتماده، لهذا السبب فالرمزية بالعمارة الإسلامية لا بد لها من دراستها من أبعاد و جوانب أخرى عسى أن تمكننا من فك بعض الرموز التي لم يتم إدراجها. وبالنسبة لي كباحثة فلاي أرى بأن الرمزية يمكن تطبيقها في أماكن دون الأخرى لعدة أسباب منها:

ليس كل المهندسين و البنائين الذين أنشئوا العمائر الإسلامية في تلك الفترة لهم ذلك النوع من التطلع، ودليل ذلك أن بعض البيوت جاءت بسيطة جدا لدرجة عدم احتوائها على أي زخارف أو ألوان و التي تحمل في طياتها تلك المعاني.

لم تترك المصادر التاريخية صغيرة و لا كبيرة تقريبا إلا أحصتها و لو بإشارة بسيطة و ذكرتھا فهل هناك أدلة تدعم هذه الأفكار من خلال المصادر التي جاءت بأخبار الدول و عمائرهم كابن خلدون مثلا، فهل يفضي ذلك إلى إهمالهم و عدم اكتراثهم بهذا الموضوع المهم، أو عدم تحليله من الأساس في العمارة و إنما جاء كمزيج بين تجسيده في مواضع دون الأخرى؟!.

لطالما حرص الإسلام على الإنفاق فيما ينفع الناس دون إسراف أو تقتير. لذلك اتخذ الفنان المسلم من النباتات عناصر زخرفية بأشكال لا حدود لها<sup>(16)</sup>، و يقول الباحث أرنست جروب: "أن العمارة الإسلامية تركز على الداخل أكثر مما تركز على الخارج، والأشكال المعمارية كالمتن و المضلع ليس الغرض منها الشكل و إنما الهدف الذي ترمي إليه، ما يجعل العقيدة ترتبط بالمضمون الوظيفي و العقائدي الذي ينعكس على العمارة"<sup>(17)</sup>.

فالمباني العامة كانت بسيطة تعكس حياة الفرد والمجتمع (ككساء الجدران من الطين والجير) مقارنة مع المباني الضخمة كالقصور التي كانت تُكسى جدرانها وتغطي بمواد رفيعة و باهضة الثمن كالجص المزخرف والرخام، وعلى العموم فإن البساطة التي نلمسها في الحياة اليومية للمسلمين من خلال العمارة بالمغرب الإسلامي، وما

أعطوه لها من مظهر مجردٍ تعكسه البيوت البسيطة ذات الكساء الداخلي الموحد للجدران والأرضيات، بحيث لا نكاد نجد عمارة قائمة على إظهار المواد الضخمة الحجم، والتي تعبر عن القوة والغنى<sup>(18)</sup>.

أما الأشكال فجاءت هندسية و نباتية وذلك تحريما لتصوير الشكل الإنساني، وكان لهذا التحريم الأثر الكبير في تطوير الاتجاه الهندسي في الزخارف و التي امتدت إلى خارج المباني<sup>(19)</sup>.

وما يلاحظ بالعمارة بتلمسان أنها قائمة دون إسراف، لأن الإسراف في التزيين يتعارض مع القيم الإسلامية التي تدعو إلى الوسطية في كل جانب من جوانب حياة الإنسان و المجتمع المسلم ، وإذا كان تطبيق النظرية الإسلامية في فن العمارة والزخرفة يتطلب كثيرا من الجهد في البحث والدراسة والممارسة ، فإن عملية البناء الفكري المعماري للفنان المسلم تحتاج إلى جهد كبير وإدراك أعمق<sup>(20)</sup>.

لذلك جعلت للعمارة الإسلامية مجموعة من المعايير الهندسية والتخطيطية داخل المدن الإسلامية للحد من المشاكل التي تواجه المسلمين في حياتهم اليومية وتطبيقا لما جاء من أحكام تُنظم حياة الناس و تُسير حياتهم، بُغية القضاء على كل النزاعات و الخلافات التي تواجه المسلمين أثناء تجاورهم، وهذا ما لا نجده بالحياة العصرية بسبب البناء الذي لا تراعى فيه هذه الضوابط التنظيمية و التخطيطية للبناء، لذلك لابد من الاهتمام بالبيوت القديمة بتلمسان و التي تعاني حاليا من ويلات التهميش و سوء الترميم.

#### خاتمة:

لطالما حرص الإسلام على الإنفاق فيما ينفع الناس دون إسراف أو تقتير. لذلك اتخذ الفنان المسلم من النباتات عناصر زخرفية بأشكال لا حدود لها<sup>(21)</sup>، و يقول الباحث أرنست جروب: "أن العمارة الإسلامية تركز على الداخل أكثر مما تركز على الخارج، والأشكال المعمارية كالمثمن و المضلع ليس الغرض منها الشكل و إنما الهدف الذي ترمي إليه، ما يجعل العقيدة ترتبط بالمضمون الوظيفي و العقائدي الذي ينعكس على العمارة"<sup>(22)</sup>.

فالمباني العامة كانت بسيطة تعكس حياة الفرد والمجتمع (ككساء الجدران من الطين والجير) مقارنة مع المباني الضخمة كالقصور التي كانت تُكسى جدرانها وتغطي بمواد رقيقة و باهضة الثمن كالجص المزخرف والرخام، وعلى العموم فإن البساطة التي نلمسها في الحياة اليومية للمسلمين من خلال العمارة بالمغرب الإسلامي، وما أعطوه لها من مظهر مجردٍ تعكسه البيوت البسيطة ذات الكساء الداخلي الموحد للجدران والأرضيات، بحيث لا نكاد نجد عمارة قائمة على إظهار المواد الضخمة الحجم، والتي تعبر عن القوة والغنى<sup>(23)</sup>.

أما الأشكال فجاءت هندسية و نباتية وذلك تحريما لتصوير الشكل الإنساني، وكان لهذا التحريم الأثر الكبير في تطوير الاتجاه الهندسي في الزخارف و التي امتدت إلى خارج المباني<sup>(24)</sup>.

وما يلاحظ بالعمارة بتلمسان أنها قائمة دون إسراف، لأن الإسراف في التزيين يتعارض مع القيم الإسلامية التي تدعو إلى الوسطية في كل جانب من جوانب حياة الإنسان و المجتمع المسلم ، وإذا كان تطبيق النظرية الإسلامية في فن العمارة والزخرفة يتطلب كثيرا من الجهد في البحث والدراسة والممارسة ، فإن عملية البناء الفكري المعماري للفنان المسلم تحتاج إلى جهد كبير وإدراك أعمق<sup>(25)</sup>. و عليه جعلت للعمارة الإسلامية مجموعة من المعايير الهندسية والتخطيطية داخل المدن الإسلامية للحد من المشاكل التي تواجه المسلمين في حياتهم اليومية وتطبيقا لما جاء من أحكام تُنظم حياة الناس و تُسير حياتهم، بُغية القضاء على كل النزاعات و الخلافات التي تواجه المسلمين أثناء تجاورهم، وهذا ما لا نجده بالحياة العصرية بسبب البناء الذي لا تراعى فيه هذه الضوابط التنظيمية و التخطيطية للبناء، لذلك لابد من الاهتمام بالبيوت القديمة بتلمسان و التي تعاني حاليا من ويلات التهميش و سوء الترميم، لذلك لابد من خلق إستراتيجية جديدة لحماية الممتلك الثقافي الإسلامي الزائل يوما بعد يوم.

## الهوامش:

- <sup>(1)</sup> أبي العباس احمد بن علي القلقشندي، **صبح الاعشى في صناعة الإنشاء**، ج03، المؤسسة المصرية العامة للتأليف و الترجمة و الطباعة و النشر، مصر، ب ت، ص 231. و ينظر:  
-يجيوي العمري، **الدراهم المغربية الأندلسية المربعة من خلال المتحف الجهوي بمليانة**، رسالة ماجستير، تخصص الآثار الإسلامية، الجزائر، 2003-2004، ص 174.
- Hadj Omar Lachachi, **le pass é prestigieux de Tlemcen ancienne capitale du – célèbre berbère ya’ghomracen fondateur de la nation**, édition ibn khaldoun, p18 Alg érie,
- <sup>(2)</sup> عبد الناصر ياسين، **الرمزية الدينية في الزخرفة الإسلامية**، ط: 1، زهراء الشرق، القاهرة، مصر، 2006، ص28، 267
- <sup>(3)</sup> عبد الناصر ياسين، مرجع سابق، ص263، 250.
- <sup>(4)</sup> عبد الناصر ياسين، مرجع سابق، ص267، 262.
- <sup>(5)</sup> السيد حمود البنا، **المدن التاريخية خطط ترميمها وصيانتها**، ط: 01، مكتبة زهراء الشرق، مصر، 2002، ص21، 23.
- <sup>(6)</sup> مصطفى مروان، **دراسة للمعالم الأثرية في مدينة ندرومة**، ماجستير ثقافة شعبية، تخصص فنون، جامعة تلمسان، الجزائر، 2004-2005، ص76.
- <sup>(7)</sup> رفعت موسى محمد، **الوكالات والبيوت الإسلامية في مصر العثمانية**، ط01، الدار المصرية اللبنانية، مصر، 1993، ص176، 169.
- <sup>(8)</sup> بن حمو محمد، **العمارة والعمران من خلال نوازل الونشريسي**، رسالة ماجستير، معهد علم الآثار، جامعة الجزائر، 2004-2005، ص45.
- <sup>(9)</sup> المرجع السابق، ص45.
- <sup>(10)</sup> مصطفى مروان، **دراسة للمعالم الأثرية في مدينة ندرومة**، ماجستير ثقافة شعبية، تخصص فنون، جامعة تلمسان، الجزائر، 2004-2005، ص76.
- <sup>(11)</sup> سيدي محمد نقادي، **التصميم العمراني لمدينة تلمسان ودلالاته الاجتماعية**، رسالة ماجستير، أنثروبولوجيا، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان الجزائر، 1991، ص44-45.
- <sup>(12)</sup> سيدي محمد نقادي، مرجع سابق، ص23، 21.
- <sup>(13)</sup> محمد بن حموش، **جوهر التمدن الإسلامي**، ط: 01، دار قابس للطباعة والنشر و التوزيع، 2006، ص177، 173.
- <sup>(14)</sup> سيدي محمد نقادي، مرجع سابق، ص204، 241.

- <sup>15</sup> ( الأمين عمر، مواد البناء و تقنياته بالمغرب الأوسط خلال القرنين (4-6هـ/10-12م) للفترتين الزيرية و الحمادية(آشير- قلعة بني حماد-بجاية)، ماجستير آثاري إسلامية، قسم الآثار، جامعة الجزائر، 2000-2001، ص178.
- <sup>16</sup> (حسين خالد، الزخرفة في الفنون الإسلامية، دار البحار للطباعة و النشر، لبنان، ب ت، ص25.
- <sup>17</sup> (عبد الباقي إبراهيم، المنظور الإسلامي للنظرية المعمارية، مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية، مصر، 1975 ، ص60-106.
- <sup>18</sup> (الأمين عمر، مرجع سابق، ص178-179.
- <sup>19</sup> (رثيف مهنا وويس بحر، نظريات العمارة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992، ص81.
- <sup>20</sup> (عبد الباقي إبراهيم، مرجع سابق، ص106-111
- <sup>21</sup> (حسين خالد، الزخرفة في الفنون الإسلامية، دار البحار للطباعة و النشر، لبنان، ب ت، ص25.
- <sup>22</sup> (عبد الباقي إبراهيم، المنظور الإسلامي للنظرية المعمارية، مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية، مصر، 1975 ، ص60-106.
- <sup>23</sup> (الأمين عمر، مرجع سابق، ص178-179.
- <sup>24</sup> (رثيف مهنا وويس بحر، نظريات العمارة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992، ص81.
- <sup>25</sup> (عبد الباقي إبراهيم، مرجع سابق، ص106-111